

# لماذا غابت الجامعات العربية عن ثورة غزّة العالمية؟



الثلاثاء 21 مايو 2024 09:14 م

فيما تستمرّ وتتوسّع ثورة غزّة الطلابية، التي بدأت في أميركا ووصلت إلى أوروبا، لا نجد في الجامعات العربية، وحتّى الفلسطينية، حراكاً يُذكر. وهذا السكون الملحوظ مُؤثّر على شلل الحركات الجماهيرية العربية، وضعف الأحزاب والمؤسسات المدنية، وهو مُؤثّر خطير على حالة العجز عن تحرك جمعي، ليس ضدّ حرب الإبادة الصهيونية فحسب، بل على المطالبة بالعدالة والحريّة عموماً. فالتراجع بعد انتكاسة الانتفاضات العربية، التي نهضت أواخر 2010، وبدأت بالضمور في 2015، كان له تأثير عميق في المجتمع العربي كلّ، فانتصار الثورات المُضادّة، وفشل الانتخابات في إحداث تغيير نحو الأفضل، وغياب قيادات وجهات مُوحّدة تحمل رؤى وطنية تقدّمية، أصاب كثيرين بالإحباط، وحتّى اليأس. أما الأنظمة، فالدرس الوحيد الذي تعلّمته هو ابتداع أساليب جديدة في كبح الحريّات، من سنّ قوانين تخنق حريّة التعبير والعمل السياسي، إلى إغلاق الساحات والميادين، حتّى لا تصبح مراكز تجمّع ورموزاً لإرادة الشعب والتغيير.

ما تقدم كلّ أثر، أيضاً، في حركة التضامن مع القضية الفلسطينية، وفي مناهضة التطبيع مع الكيان الصهيوني، باعتباره خطراً على فلسطين والدول العربية، مجتمعة وفرداً. وفي المحضلة، أشاع تقييد الحريّات والقهر أجواءً الخوف والترهيب من اعتقال وتدخّل أجهزة الأمن، ومن فصل من الجامعات، ومن تدمير مستقبل الطلبة، وأوصل الجامعات إلى هذه الدرجة من السكون المخيف. مع أهّية غياب الحريّات عاملاً رئيساً في تحليل عدم انضمام الطلبة في العالم العربي إلى الثورة الطلابية العالمية، لكنّه ليس العامل الوحيد، بل يجب أن نواجه حقيقةً وتداعيات تدهور وتشويه الوعي والثقافة، الذي غيّب الجامعات العربية عن الحراك ضدّ حرب إبادة ليست بعيدة عنّا، وتنازع أحداثها لحظة بلحظة على شاشات قنوات التلفزة والهواتف النقالّة.

معظم الأنظمة العربية مسؤولة عن تغييب منهج للقضية الفلسطينية في المدارس والجامعات، وبخاصّة، بعد سلسلة من اتفاقيات تطبيع رسمية مع الدولة الصهيونية. فهناك جهل أو نقص معرفي بجذور القضية، بما في ذلك فهم الحركة الصهيونية، وطبيعة المشروع الصهيوني وخطره على الأمن القومي العربي، يضاف إليه تسطيح معرفي بطبيعة الصراع وتداعياته على الاستقرار في المنطقة. الأخطر، ربّما، عملية الفصل الممنهجة، أيضاً، بين نضال الشعب الفلسطيني والتحرّر الوطني العربي، وقضايا الحريّات والعدالة والحقوق الاجتماعية، بحجّة أنّ الانشغال بالقضية الفلسطينية يُعرقّل تقدّم المجتمعات العربية، وهذا التيار، بالمناسبة، ليس في أوساط النخب الحاكمة، بل لدى بعض التيارات الليبرالية "التنويرية". فتحت عنوان "الحداثة" يناصب هؤلاء العداة للقضية الفلسطينية، وهو في جزء منه تأثرٌ بتيّار ليبرالي غربي مُناقض، وأحياناً عنصري، يُسوِّغ السياسات الاستعمارية، وفي جزء مُهمّ منه، يُجسّد التأثيرات الفكرية والإقليمية العنصرية و"المالية" في تفكير أحزاب، وأشباه مُتفقين، وحتّى مُتفقين.

بدأ هذا التيّار الليبرالي الانتقائي، وأحياناً الإقصائي، في العالم العربي، يتغلغل في هيئات التدريس الجامعية، ومراكز الأبحاث والإعلام، وساهم في تشويه الوعي عند أساتذة الجامعات والطلبة. وأكثر مقولات هذا التيّار أهّية أنّه يقف في مواجهة تيار الإسلام السياسي، ويعتبرها أولوية في التغيير، بل ربط الشقّ الأسوأ في هذه التيارات القضية الفلسطينية بكرهية "تخلّف التيار الديني". وهنا تُقرّم القضية الفلسطينية إلى صراع ديني يجاهونه بـ"المحبّة" للجيش الذي يُنكّل بالفلسطينيين، وبقبول الاحتلال، وتفوّق إسرائيل.

حالة التشوّه في النظام السياسي العربي انعكست على حالة الجامعات وعلى حراك الطلّاب، الذين ليسوا في منأى عن حالة الإحباط العام من جدوى المظاهرات

هذا التيّار، وإنّ لا يبدو قوياً، غير أنّ تأثيره في الشباب أعمق مما يظهر في السطح، لأنّ بعض الحكومات تقبل هذا التيّار "الليبرالي"، وتستخدمه من خلال منطلّمات غير حكومية، بعضها ممولّ أجنبياً، أو "تمكين" الشباب داخل الجامعات وخارجها، لضمان الولاء ولمواجهة تيّار الإسلام السياسي. وهذا ما فتنت بعض الحكومات تمارسه لمنع حدوث انتفاضة عربية ضدّها، بعد تجربة "الربيع العربي"، ولذا، كان التخويف أو زرع وعي مشوّه ضدّ دعوات الإصلاح، خصوصاً أنّ كثيراً من المنطلّمات شبه الحكومية، التي تضمّ بعض "الليبراليين"، تكون مُختَرقةً أمناً، وتمثّل توجّهات عنصرية ضدّ الفلسطينيين، تحت غطاءً لمواجهة الحركات الإسلامية. فقامت بعض الدول بتوظيف هذا التيّار عند بدء التحركات في الجامعات تضامناً مع غزّة، بحجّة الخوف من تأثير "انتصار حركة حماس" أو حتّى صمودها في تقوية الحركات الإسلامية، تتقدّمها جماعة الإخوان المسلمين.

اللافت، غياب حركة طلابية قوية في لبنان، الذي حمل في الستينيات والسبعينيات شعلة الانتصار للثورة الفلسطينية، بالإضافة إلى تدهور الوضع الاقتصادي، واليأس من حكومات تعتمد التقاسم الطائفي بين قيادات الطوائف، فإن ربط القضية الفلسطينية بمعاداة النظام السوري وإيران أصبح من مبررات النفور من تأييد القضية الفلسطينية. وترى ذلك بين فئات من المعارضة السورية من الطلبة ومن الشباب، أي إن من يناصب العداء لأنظمة تحمل شعار الممانعة والمقاومة انتقل من رفض لطهران إلى رفض للقضية الفلسطينية.

من دون وقوف النخب بحزم أمام أيّ هجمة أمنية، لا يحقّ لنا أن نطالب الطلبة بالتحرك ونحن صامتون

من الغرب ألاتقدم الطلبة الاحتجاجات، وبخاصة ضدّ الجريمة المرؤعة والمستمرّة في فلسطين، لكنّ حالة التشوّه في النظام السياسي العربي انعكست على حالة الجامعات وعلى حراك الطلاب، الذين ليسوا في منأى، أيضاً، عن حالة الإحباط العام من جدوى المظاهرات في الضغط على الحكومات العربية، وجعلها تُغادر حالة الخذلان للفلسطينيين، إن لم يكن ممالأة أميركا وإسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني. فهناك طلبة مصريون اعتقلوا لتأييدهم غرّة، ورفض جريمة الإبادة، وفي بعض دول الخليج العربي، غير مسموح إظهار التأييد للفلسطينيين أو حتّى رفع علم فلسطين. وفي الأردن، نجحت الحكومة والأمن، إلى حدّ ما، في فرض حالة خوف وأجندة شعارها "مصلحة الأردن أولاً"، جعلت من الحراك تأييداً للفلسطينيين خطراً على الأردن، إلى حدّ اتهامه بالانصياع لتحريض أو أوامر "حماس". وكاتبة هذه السطور شبه متأكّدة لو أنّ بعض الطلبة العرب كانوا يدرسون في الجامعات الأميركية أو البريطانية، لكانوا قيادات في ثورة غرّة الطلابية، لكنّ قمع الفكر وحرّية التعبير في مدارسنا وجامعاتنا العربية، وحتّى في قاعات التدريس والصفوف، ينتج طلاباً خائفين على فرصهم في الشهادة الجامعية، ويخشون التصحية بمستقبلهم، خصوصاً، أنهم فقدوا الثقة بقدرة الشعوب على التغيير.

ما تقدّم ليست مسوّغات أو تبريرات لحالة الصمت في الجامعات العربية، بل إدانة للأنظمة، التي جعلت العقلية العرفية الأمنية العربية تتحكم بالجامعات. والبدل، الآن، هو في تحرّك طلابي جماعي، فلا يمكن فصل المئات والنزج بالآلاف في المعتقلات، خصوصاً أنّ الدفاع عن فلسطين، في هذه المرحلة، هو دفاع عن الأردن وفلسطين وسورية ومصر والإمارات، وكلّ بلد عربي. لكن، على النّخب، أيضاً، أن تتحرّك ولا تترك الشباب والطلبة فريسة العملية الأمنية والاعتقال، وهذا جزء كبير من المشكلة، فمن دون وقوف النخب بحزم أمام أيّ هجمة أمنية، لا يحقّ لنا أن نطالب الطلبة بالتحرك ونحن صامتون.

أما الأنظمة، فمحاولاتها لتكوين طلبة موالين وخانعين ستتقلب عليها. فأميركا نجحت سنواتٍ، بعد الاحتجاجات ضدّ حرب فيتنام، في كبح الحركات الطلابية، إلى أن انفجرت بوجهها رفضاً لحمايتها مشروعاً استيطانياً إحلاليّاً عنصراً يهدف إلى إلغاء هويّة الشعب الفلسطيني، حتّى لو تطلّبت إبادته.

المصدر/ العربي الجديد